عام

أصول العنف وسؤال الشرعية

عمار بنحمودة
باحث تونسي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى النظر في جذور العنف وشرعيته في الفكر الإسلامي من خلال استرجاع التجارب التاريخية في الفترة النبوية وفترة الخلفاء الراشدين، ورصد التشريعات الإسلامية التي تبيح العنف وتبرره، وهي محاولة للبحث عن الخلفيات الإيديولوجية التي تضفي شرعية على العنف أو تلك التي تعتبر الدين قائما على التسامح، ويقودنا البحث في الجذور التاريخي للعنف إلى طرح الوجه العصري الذي يتهم به المسلمون عنفا، وهو "الإرهاب"، إذ نحاول إزالة الغشاوة عن المصطلح وفهم روافده الحقيقية وسر انتشاره الواسع في الإعلام وفي خطب الساسة، بعيدا عن التأثر بما ساد من أحكام حول هذه الظاهرة، ونسعى إلى ربطها بسياقاتها التاريخية ومن أهمها سقوط العدو اللدود للرأسمالية المتمثل في الاتحاد السوفييتي وسعي الغرب إلى تحويل الصراع الذي أرهقه طوال عقود طويلة ضد منظومة تنقده وتحاول تفكيكه إلى صراع موهوم، بصرف الأنظار عن الفقر والتهميش واستغلال الدول الفقيرة وعنف الأنظمة القوية نحو عدو زائف اسمه الإرهاب يصلح أن يكون سببا لتبرير الأطماع وشرعنة العنف وإيهام الرأي العام العالمي بخطورته. والحق أنه خصم ضعيف أنتجته ظروف اقتصادية واجتماعية، كان الغرب ذاته مسؤولا عنها وتنفتح الدراسة نحو آفاق العلاقات بين الشعوب وفق أنسنة المصير المشترك.

لقد رصد المفكرون المعاصرون في التاريخ الإسلامي كثيرا من مظاهر العنف المقدّس التي لم تقتصر على الممارسات المتأخرة لخلفاء بني أمية وبني العباس، وإنما اتصلت بحوثهم أيضا بالفترات الأكثر إشراقا في الذاكرة الإسلامية،[1] وهي فترة النبوة والخلفاء الأوائل الذي أُصطلح عليهم بالراشدين، تعبيرا عن رشدهم وحكمتهم في إدارة شؤون المسلمين، ولئن كانت الوقائع التاريخية التي نقلتها كتب التاريخ والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء لا تدع مجالا للشك في اعتماد العنف وسيلة لنشر الدعوة وفرض النظام، فإن السؤال الأهم يظل متمثلا في المقاربة المعاصرة لهذا العنف، هل يعتبر مكونا هيكليا في الإسلام أم إنه ممارسة ترتبط بواقع العصر الذي نشأ فيه النبي وصحابته؟

1– الإسلام والعنف:

تبدو الإجابة عن هذا السؤال في مفترق طرق يمكن أن تؤدي كل إجابة عنه إلى مسلك مختلف في التأويل؛ فاعتبار العنف أمرا هيكليا ثابتا في الفكر الإسلامي يُبيحُ للجماعات المسلّحة اليوم أن تستمد شرعية عنفها من مرجعية القرآن والسنة، فصلاح القرآن لكل زمان ومكان يمنح العنف في نظرهم صفة الإطلاق، مثلما يمنح المقاتل اليوم ثقة بأنه يجاهد في سبيل الله من بغى وكفر من الناس. أما اعتبار العنف صفة شخصية أو تاريخية، فيجعله مجرد آلية من ضمن الآليات المطروحة على مسلم اليوم من أجل نشر دعوته وبلوغ مقاصده الدينية.

كيف يمكن إذن الحسم في مسألة تمثل بؤرة الصدع بين تأويل حداثيّ للإسلام وقراءات تستعيد الجهاد في أشكاله التقليدية؟

لعل النّاظر في التراث الإسلامي، يجد أن سؤالا مُهمّا يتعلق بسيرة النبي لم يطرح : وهو سؤال ما مهنة النبي؟ هل هو راع كما ساد الاعتقاد؟ أم إنه تاجر أخذته رياح السائد من الأنشطة نحو ممارسة المهنة الأكثر رواجا بين أهل قريش؟ هل يمكن القول إن النبي قد امتهن الإغارة بعد أن نزل عليه الوحي؟

تبدو المسالك وعرة للإجابة عن هذه الأسئلة، ذلك أن الحديث عن العمل في فترة الإسلام لا يكاد يبدو موضوعا ذا بال، فلم يهتم به المؤرخون ولا ولع به كتاب السيرة النبوية؛ فحياة النبي كانت تجمع بين الانشغال بمسائل الوحي وإدارة شؤون المسلمين والإغارة. وفي أوقات فراغه كان مثلما حدثنا ابن سعد و"أخبرنا عفان بن مسلم أخبرنا مهدي بن ميمون وأخبرنا عمرو بن عاصم أخبرنا همام بن يحيى كلاهما عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قلت لعائشة: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما تعمل الرجال في بيوتهم.[2] فلم تذكر كتب السيرة أن النبي كان يخرج بعد نزول الوحي

[1]- انظر مثلا: كتابي الهادي العلوي، من **تاريخ التعذيب في الإسلام، والاغتيال السياسي في الإسلام**.
[2]- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج1، ص247

عليه للتجارة، ولا تحدثت عن قيامه بأعمال الرعي؛ فقد قال رسول صلى الله صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله نبي إلاّ ورعى الغنم." ولعل ذلك يعود حتما إلى كون الوحي وهب النبي منزلة السيد بين قومه، مما جعله يستغني عن أنشطته القديمة ويولي وجهه شطر الغزو؛ فمصدر دخله صلى الله عليه وسلم هو ما صرّح به في قوله: "وجعل رزقي تحت ظل رمحي" مثلما رواه أحمد.

تلك الأحاديث تجعلنا نقف عند امتهان الرعي والتجارة قبل نزول الوحي وامتهان الحرب بعد نزول الوحي، وقد كانت الإغارة من الأنشطة السائدة بين الناس في القبائل العربية، وقد اعتمدها النبي آلية لنشر الدعوة، وأسبغ عليها صفة القداسة فصارت تسمى جهادا. فهل يمكن لتلك القداسة أن تصيّر الحرب قانونا أبديا؟

لقد كانت الحرب وسيلة تحقيق وجود؛ فهي لم تكن ثابتا يعتمده النبي في جميع المواقف، والدليل على ذلك أن الفترة المكية كانت فترة سلم، رغم الأذى القريشي، ولم يطرح الخيار العسكري إلا بعد الانتقال إلى المدينة وامتلاك القدرة على القتال في مجموعات منظمة. وحين كان يجد مخرجا سلميا مع القبائل، فإنه كان لا يتبع الحرب سبيلا لنشر الدعوة. ولذلك، فالارتزاق بالرمح مهنة ظرفية وخيار من جملة خيارات أخرى اعتمدها النبي في كسب رزقه ونشر دعوته.

فهل أتى على المسلمين حين من الدهر، يستطيعون الفصل في مسألة شرعيّة العنف؟ وهل يمكنهم الاستغناء عن الإرث النبوي المثقل بالحرب؟

قد تكون مواقع النظر محدّدة للإجابة عن السؤال؛ فالمتمسكون بالحداثة يرون ضرورة إعلاء صوت التسامح بديلا عن العنف المقدس، والحالمون باسترجاع أمجاد الأمس بحروبه وغنائمه ونظامه الثقافي، يجدون أن أسلافهم سلكوا سبيل العنف فحققوا ما يطمحون إليه. والإجابتان مثقلتان بوطأة الإيديولوجيا وسلطة الأنساق المتحكمة في كل طرف.

2– مصادر العنف الإنساني:

لقد أثبتت الدراسات النفسية أن العدوان مكون أساسي في الذات البشرية، وسواء أكان المبرر نفسيا أم اقتصاديا؛ فالحال سواء، إذْ لا وجود لعصر خلا من العنف وبؤر التوتر منتشرة في جميع المناطق؛[3] فقد اعتبره فرويد آلية متحكمة في اللاشعور الإنساني. بينما رأى "أنجلز" (Engles) أن العنف محرّك اقتصادي في الصراع بين الطبقات، بل لعلّ هذا العنف يصير آلية لتغيير واقع المضطهدين، حين يصير ثوريا تخوضه "البروليتاريا" ضد الطبقة البورجوازية. "ولا يخلو العنف من شحنتين إحداهما سلبية والأخرى

[3]- انظر: سالم بن حسين، **بؤر التوتر في العالم**، ط1، تونس، دار البراق، 1989. حيث قدم الكتاب بعض خطوط الصدع ومواطن العنف في العالم الإسلامي وفي إفريقيا السوداء وأمريكا اللاتينية وآسيا ومشاكل الأقليات في العالم.

إيجابية...ولذلك، يظل الوعي بخطورة العنف وعيا معاصرا، لأنه كان في القديم وسيلة لتحقيق الوجود لا يستهجن."[4] وقد اختلفت وجهات النظر إلى العنف بين مستهجن له ومقر بفضله في حركة التاريخ والمجتمع. ومن هنا، فنحن نتساءل عن سرّ انشغالنا بالعنف؟ هل هي محاولة لنفي مراجعه التاريخية وأصوله الدينية حتى يجد السلفيّون الذين يجاهدون اليوم ينابيع تشريعهم للجهاد قد جفّت فتصير الغاية سياسية إيديولوجية؟ أم هو محاولة لإظهار الوجه المتسامح من الإسلام في عالم يرى الإسلام عنيفا وكثيرا من المسلمين متهمين بالإرهاب فتصير الغاية دفاعية؟

قد يصير الإقناع بأن التاريخ الإسلامي خال من العنف أمرا لا يصدّق وكتب السيرة لا تنفك تذكر الغزوات وحروب المسلمين بقيادة نبيهم. وما تأسست قوة الدولة الإسلامية إلا بحدّ السيف. فالعنف لا يمكن أن ينكر، ولا يمكن أن نرى وجهه السلبيّ فحسب ففضله في تكوين النواة الأولى للدولة الإسلامية لا ينكر، وهو الذي مكّن الخليفة الأول من دعمها وحفظها من التشتت بعد انتشار حركة الردة والانفصال. فلماذا تحاول قراءات معاصرة إظهار الإسلام متسامحا غير عنيف، وهي تشقى تأويلا وردّا على من شرعنوا العنف الإسلامي؛ والحال أن العنف لا يمكننا إنكاره. فقد صحّ أن النبي امتهن الغزو، ولكنه صيّر تلك المهنة جزءا لا يتجزأ من المنظومة الإسلامية، فقد نزلت آيات تحث على الجهاد وعجت الأحاديث بالحث على الحرب واستهجان القعود وزادها الإرث الجاهلي قوة من خلال قيمة الشجاعة التي لم تكن ظاهرة في استماتة المقاتلين دفاعا عن حرمة القبيلة، وإنما في أشعارهم الحماسية وخطبهم التحريضية. فما بال هذه القيمة التي لا تكتمل الرجولة والفتوّة دونها قديما قد تحولت اليوم في منظومة الحداثة إلى عنف مستهجن، وكأنّه وصمة عار على جبين المسلمين؟ لماذا تغيرت المواقف؟ هل صار "العنف الإسلامي" ذبابة في مأدبة العولمة يتأذّى من رؤيتها الساسة وتعرضها وسائل الإعلام الغربية تحت مجهرها ضخمة مرعبة؟ وما بال هذا العنف صار أعتى في صراع المسلم ضد المسلم والحال أن "ديار الحرب" على مرمى حجر؟

هل يعتبر العنف الجهادي خطرا على الحداثة ومكتسباتها وتهديدا للحضارة الغربية أم إنه مجرد لعبة يُحكم الكبار تسييرها وتوجيه نيرانها أنّا شاءت مصالحهم؟

لقد صار من الغريب أن توجه بنادق "المجاهدين في سوريا" نفس وجهة الأسلحة الإسرائيلية، وأن يتحوّل بعض القادة العرب فجأة إلى سرطان خطير يستوجب الأمر إزالته بشكل عاجل. والحال أن كيانا استعماريا يكبر وينمو باغتصاب الأراضي العربية والاستيطان فيها وأمره مؤجل دوما إلى موعد غير محدد؟ لقد اجتاحت موضة الثورة الدول العربية دون هوادة وصار عنف الدول الغربية وسيلة لتحقيق "الحرّية" وإزاحة الحكام الذين انتهت صلاحيتهم، ولكنها - ويا للمفارقة - قد استطاعت أن تخرج من غياهب السجون ومن أطراف

[4]- Encyclopidie Universalis,tome23,1er édition, France, Maury à Malsherbes,1990.p669

الجبال من هم أخطر على الحرية من حكّام الأمس القريب. وصارت المرجعيات التراثية تهبهم شرعية الحقيقة المطلقة ودوغمائية الفهم الواحد وتشرع لهم العنف ضدّ خصومهم، ولكنّهم خصوم الداخل وقد صارت حصون الآخر عصيّة على المجاهدين. لقد تاهت مراجع الجهاد فصار صيدا سهلا في شبكة العولمة واقعا تحت سيطرة أشباح لا تُعرف وجوههم الحقيقية إلا عبر وسائل الإعلام وصفحات الأنترنت، ولا ينفك الشك يراود المرء، وهو يطالع صفحات الإرهاب والسقوط السينمائي لبرجي التجارة العالمي وبطل السلسلة الإرهابية المثيرة التي تابعها ملايين المشاهدين "أسامة بن لادن" وسائر الممثلين الذي نشروا فكرة الإرهاب أكثر مما فعله الدعاة المتشددون.

3– شرعية العنف وصناعة الإرهاب:

العنف ليس نتيجة تأويل للقرآن والسنّة، وإنما هو نتيجة لاختيارات سياسية فرضها الواقع المعاصر وتدخلت أطراف من الغرب ذاته، ممن أرادت رسم صورة قاتمة للإسلام والمسلمين وإغراقهم في وهم هويّة منغلقة ترى في الإسلام جزيرة معزولة يحرسها المجاهدون ببنادقهم، وقد صار الغرب عدوا، كل بضائعه الفكرية فاسدة ولا غرابة أن يجد كتاب فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" وكتاب صموئيل هنتنغتون (Samuel Huntington) "صدام الحضارات" ترويجا ورواجا منقطعي النظير خدمة لمشروع الإرهاب وتهيئة لأرضية تلقيه حقيقة على أرض الواقع؛ فمثل تلك المؤلفات هي كسيناريوهات الأفلام كتبت لتُمَثّلَ[5] ولم تكتب لتَكُون مجرد مادّة للقراءة والبحث العلمي الرصين، ولئن كانت الأطروحة الأولى قد ظهرت زمن سقوط الاتحاد السوفييتي معلنة عن الانتصار الساحق للمعسكر الليبرالي ووصوله ذروة التصنيف الحضاري، بعد أن قام بتصفية كل خصومه، فإن الأطروحة الثانية قد عكّرت مياه الأولى بفتحها جبهات أخرى لليبرالية المنتصرة إيديولوجيا، وهي واجهة حضارية على الحدود الإسلامية الدامية لم تكن أطروحة معرفية بقدر ما كانت فتحا سياسيا لحقبة جديدة ما بعد الحرب الباردة هي حقبة الصراع ضد الإرهاب على قاعدة الصدام بين الحضارات، ولكن أخطر ما في الأطروحة أنها تجعل العنف مكونا هيكليا في منظومة الغالب، "فلقد تغلّب الغرب على العالم ليس من خلال تفوقه في الأفكار والقيم أو الديانة (التي تحولت إليها أعداد قليلة من حضارات أخرى) ولكن بسبب تفوقه في تطبيق العنف المنظم."[6] فهل يعني ذلك أن "الإرهاب الإسلامي" غير منظم وأنّ حاملات الطائرات والقاذفات العملاقة للصواريخ وحدها من تستحق لقب "العنف المنظم" أو "القوة الناعمة"؟

[5]- من الشواهد التي تؤكد ذلك قول صموئيل هنتغتون: "في مكان ما من الشرق الأوسط، ستة أشخاص يمكن أن يرتدوا الجينز ويشربوا الكوكا كولا ويستمعوا لموسيقى الراب وخلال توجههم للخشوع بمكة يضعون معا قنبلة لتفجير طائرة ركاب أمريكية."، **صدام الحضارات وبناء النظام العالمي**، (ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف)، ط1، ليبيا، الدار الجماهيرية،1999، ص 131

[6]- صموئيل هنتنغتون، المرجع نفسه، ص 120

لا يخفى أن ماكس فيبر قد تحدث عن مشروعيّة العنف المادي الذي تحتكره الدولة، وهو ما يمنحه الشرعية، ويسلبها من سائر الأطراف التي توظّف العنف آلية لتحقيق أهدافها وبرامجها، وقد أثر هذا الفهم في السياسة العالمية المتبعة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، فقد احتكر النظام العالمي الجديد ممثلا في الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها العنف وصيّره شرعيا، بينما اعتبرت كل أشكال العنف الأخرى التي تمارس خارج تلك الدائرة غير شرعية وتنعت بالإرهاب، وإن كانت تتخذ أشكال المقاومة والدفاع عن حرمات الأرض التي ينتمي إليها المقاتل، فالنظام العالمي الجديد استطاع أن يتقمص ثوب الدولة، ولا غرابة أن تُطلق على الولايات المتحدة نعوت من قبيل "شرطي العالم" ذلك أنها تعبر ضمنيا عن كونها تحتكر العنف الشرعي والمنظم وتقاوم كل عنف غير شرعي، ولا شك أن مركز الشرطة يظل في مقر الأمم المتحدة حيث يكون الغرب خصما وحكما. ولئن كانت كثير من الدول تشكو مركزية القرار واحتكار الخيرات في العواصم والمناطق الاستراتيجية المهمة مقابل تهميش سائر المناطق التي تكون في العادة داخلية أو قليلة الأهمية من الناحية الطبيعية أو التاريخية أو السياسية، فإن النظام العالمي الجديد، وهو يتقمص دور إدارة الصراعات في العالم، ويتدخل بقواته لفضّ النزاعات، فإنه يمارس بدوره ضربا من المركزية التي تجعله يفكر دوما في مصلحة المركز على حساب الأطراف ويكيل بمكيال المصلحة التي تفرض التعامل ضد كل عنف يهدد تلك المصالح بقوة وحزم. فالعالم دولة كبيرة تهيمن عليها الدول العظمى وتُضطهد فيها الدول الفقيرة والنامية، ولذلك، فلا معنى للحديث عن صدام الحضارات والحال أن الصراع قائم على الاستغلال؛ فالصراع الحقيقي في العالم هو صراع المصالح، ولا غرابة أن تتقارب هموم العمال، وتتحد مطالبهم في أنحاء مختلفة في العالم، في الوقت الذي تنقسم فيه مجتمعات لها حضارة واحدة وثقافة مشتركة نصفين باسم اتباع الحداثة أو إنكارها. فمن وراء عاصفة الصراع بين الحضارات ينجلي صراع لم يقع الحسم في حلوله، فقد سقط نظام سياسي كان يتبنّى حلولا للجشع الامبريالي، ولكن ذلك لا يسقط المشكل أو يلغيه. فالفقر لا يزال مولّدا للأزمات ومركزية الغرب لا تزال هي المسؤولة عن ظهور حركات توظّف العنف سبيلا للانتقام والتشفي، ممن فتحوا الحدود لبضائعهم وأغلقوها في وجوه الطامعين في جنان الغرب من المهاجرين.

لا يخفى أن هذا المصطلح واقع تحت أحكام مركزية ترى في الغرب صاحب الشرعية الوحيدة في استعمال العنف؛ ولذلك فهي تدين سائر أشكال العنف المختلفة زمانا ومكانا، فعنف الماضي غير منظم، لأنه بدائي وعنف الآخر إرهاب لأن منابعه غير غربية، ولذلك فقد كانت أحداث 11 سبتمبر أفضل عيّنة لتحويل الأطروحة النظرية إلى واقع ملموس عبر تضخيم إعلامي لعنف غير منظم، وتحويل الحرب على العراق وأفغانستان إلى عنف منظم بشرعنته، وإن بعلل واهية وشعارات مستمدة من قواميس حقوق الإنسان وترويج إعلامي تختصّ به أرض هوليود، فانتقل الإرهاب الإسلامي إلى الصفحات الأولى من الجرائد والمجلات والأخبار الرئيسة في تلفزيونات العالم. والحال أن ظواهر أعظم تهدّد الإنسانية لا تلقى إعلاميا ذلك الاهتمام والتضخيم، وصار من أولويات الدول الغربية الراعية لحقوق الإنسان أن تقضي على ما يهدّد السلم العالمية

ويعكر صفو مياه العولمة. فكانت تلك الزوبعة التي أثيرت حول الإرهاب أداة ناجعة أنست الإنسانية ما قام عليه الصراع الإيديولوجي القديم بين المنظومتين الليبرالية والشيوعية، وتوارت الأسئلة المحرجة للنظام العالمي الجديد حول حقوق الشعوب المستضعفة اقتصاديا وتوحش الرأسمالية في استغلالها للدول الفقيرة، ودعمها ثراء الدول الغنية وأنانيتها في تحقيق النعيم الغربي، وإن كان ذلك بتحويل حياة الشعوب في الدول الضعيفة إلى جحيم؛ فقد ذكر التقرير السنوي لمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة أن عدد الجياع لا يزال مرتفعا في العالم، فقد بلغ عدد من يعانون نقصا مزمنا في التغذية 870 مليون نسمة في الفترة بين 2010 و2012 ويعيش القسم الأكبر منهم في البلدان النامية بحوالي 850 مليون نسمة[7]، وصار سقوط الاتحاد السوفييتي وكأنه سقوط للمنظومة التي نقدت الرأسمالية وكشفت مثالبها، فصمتت الأفواه المنددة بالصراع الطبقي والاستغلال الإمبريالي وتعالت مضخمات الصوت تكبر للجهاد وتجسد المتخيل الإرهابي، ولكن الأمر الذي غفلت عنه الإنسانية هي أن الرأسمالية التي كانت مراقبة من عدوّها صارت طليقة في الميدان. ولذلك، فقد كانت تبحث عن فريسة سهلة تستعيد بها مجدها العدواني وتختبر به ترساناتها العسكرية، فمن طبيعة الحروب الاستعراضية أن يكون الخصم ضعيفا وأن يكون القضاء عليه سهلا حتّى لا ينقلب السحر على الساحر ومن شروط الرماية أن يمتلك المقاتل سلاحا، وأن يكون في الساحة مرمى وهمي يختبر به قدرته الحربية، ولهذا فقد كانت بؤر التوتر المولّدة للعنف تقوم في خطوط الصدع الضعيفة التي يخرج فيها الغرب منتصرا بأخف الأضرار، وقد استوعب درس صراع الكبار من الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، وصار قطاف هذه الحروب الجديدة في اتخاذ الأطماع التوسعية للغرب ثوبا حقوقيا وطابعا دفاعيا ضد الإرهاب في معاقله، وصار ذلك العنوان ستارا يخفي الأطماع الاقتصادية وثوابت السياسة الغربية القائمة على العنف، وسرعان ما تحول "الإرهاب الإسلامي" من خطر يهدّد الأنظمة الغربية إلى سلاح يستعمل من أجل تفكيك الدول القطرية؛ فصار صدام الحضارات لا يقضي بمجرّد فصل بين الغرب والإسلام عملا بالموروث الاستشراقي، وإنما صار آلية لتفكيك الدول على أساس مذهبي، وفي الوقت الذي يواصل الغرب مساره في القمة ترتدّ الدول القطرية نحو مشاكل جديدة تعيق مساراتها التنموية، وهي تلهث باحثة عن رأب التصدعات الداخلية بدل التفكير في مشاريع توحدها مع دول أخرى قد تشترك معها في اللغة أو الدين أو المصالح؛ فالإرهاب صار آلية لرسم حدود جديدة تفكك بدل أن توحّد وتمزق بدل أن تضمّ، حتّى أن الإرهاب صار يفضل الجبهات الداخلية في ديار المسلمين على الجبهات الخارجية التي صار من الصعب اختراقها، وصار قتل "المسلم" أكثر انتشارا من قتل "الكافرين". ولو صحت أطروحة "هنتنغتون" حول خطر الإسلام على الغرب بحدوده الدامية لما كان من المفارقة أن تكون الدول العربية الإسلامية أكثر تحمسا من الغرب ذاته في ضرب بعض الدول الأخرى واستباحة حدودها، ولما توافقت مصالح كثير من الدول الإسلامية مع السياسات الخارجية الأمريكية، حتى صارت منفّذا لها ومروّجا لتعاليمها. فلينظر المسلم ممّ خلق الإرهاب؟ هل خلق من وضع فاسد يخرج من بين الفقر والتهميش؟ إنه على فهمه لقادر

[7]- http://www.fao.org/docrep/016/i2845a/i2845a00.pdf

يوم ينظر في ظروف نشأته وسياقات تطوره، فهو كمثقال ذرة في سوق العولمة أمام ترسانات الحلف الأطلسي وأساطيل البحور ووحوش الجوّ، وهي الأحق بأن تنعت بالإرهاب، لأنها حيثما حلّت حلّ معها الدّمار وانتشرت رائحة الجثث، والأخطر أنه يجد شرعية العنف باسم الحفاظ على السلم العالمية أو حفظ المواثيق الدولية. والأكيد أن حركة ذلك العنف كلما تقلّصت تراجعت معها أشكال العنف الأخرى الصادرة من الضفة الإسلامية وفق منطق المحاكاة الذي أقرّه رينيه جيرار (René Girard). ذلك العنف لا ريب فيه هلاك للبشرية التي تتفنن في إيجاد مبرراته، ولكن النظر من زاوية واحدة ترى الإرهاب في ردود أفعال الضعفاء والمسحوقين من المسلمين وإدانة المرجعيات التي يعتمدونها أمر لا عدل فيه، ذلك

أن الغرب بسياساته الاستعماريّة ونهمه الاقتصادي وفرضه لونه الحضاري على سائر الشعوب، قد كان العلّة الأبرز في استعمال العنف. فإن صحّ أن العنف يقوى بالمحاكاة ويبرّر؛ فالغرب له نصيب الأسد من هذا العنف مولّدا للفتن والحروب وناشرا للموت بين بني البشر. فليكن المسلمون أكثر جرأة في طرح إشكالية العنف وكشف أسبابها الحقيقة ولينظر الغرب ما قدّمت يداه، وهو يسعى إلى إخضاع البلدان الأقل تطورا اقتصاديا للبلدان المتقدمة، ويحاول تبرير هذا الإخضاع القائم على عنف عسكري واقتصادي بتلوين عنفه وتزويقه حتى يبدو منظما وناعما ومنسجما مع الموضة العالمية التي صار عنوانها القضاء على الإرهاب، ولئن وجدنا للعنف تبريرات فيما ساد من طرائق التعامل بين البشر قديما، فإننا لن نجد له مبررات في عصرنا وقد صارت المواثيق الدولية بجذورها الفلسفية تصوغ التسامح في أبهى حلله وتظهره شعارا لمؤسساتها. ولكن مائدة العولمة ما عادت تشبع نهم الغرب فراح يمد يديه، لينتزع الفتات من أيدي الفقراء والمساكين ويخلط فتاتهم بدمائهم. ولئن كان العنف مجرد حرفة أدواتها السيف والرمح والخنجر؛ فقد صار زمن التقدم العلمي صناعة عتيدة تنشر الرعب بقوتها وتنذر بقيامة بشرية بدت علاماتها الصغرى في هيروشيما (Hiroshima) وناغازاكي (Nagasaki).

4– آفاق العنف ومصير الأنسنة:

إذا أردنا فهم العنف اليوم، فلابد من تجاوز مغالطة التسميات؛ فالحديث عن "إرهاب إسلامي" قد يكون مضلّلا ومحكوما بمركزية الغرب الذي يرى عنفه منظما وعنف الآخرين "إرهابا" وفي وعيه أن امتداد لأشكال البربرية القديمة الموروثة من أسلافهم يخفي وجوها أخرى لهوية المجاهدين؛ فانطلاقا من التقسيم الاقتصادي ينشط الإرهاب في الدول الأكثر فقرا، حيث عجزت الحركة الاقتصادية عن استيعاب كثير من البشر داخل دواليبها، ومن الناحية العلمية يمكن القول إن التكوين العلمي للمنتمين إلى دائرة الفكر الجهادي يغلب عليه عادة الافتقار لتكوين في مجال العلوم الإنسانية، مثل علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا وباختصار العبارة، حيث ينتشر الجهل بمكاسب الإنسانية علما. ولهذا فالانغلاق يبدأ ثقافيا يوم يتحول الغرب في وعي الشباب المجاهدين إلى شيطان رجيم لا همّ له سوى الفتنة ومحاربة الإسلام فتجتمع الصورة التراثية للآخر الكافر مع

صورة الغرب المستعمر والنَّهِم لتُنتج حقيقة ثابتة يراها أصحابها بعين اليقين، وهي أن الغرب شيطان رجيم. وتظلّ البطالة على المستوى الاجتماعي سببا رئيسا من أسباب انتشار الإرهاب، ذلك أن فقدان العمل يؤدي إلى فقدان معنى الوجود والانتماء إلى صف المجاهدين داخل تلك التنظيمات يهب المنتمي معنى للوجود ويزيّن له عالم الموت، لأنه يصير عالم المعنى. كيف لا وهو الغني بجنانه والمحقق للجزاء في مفهومه المطلق، بينما الحداثة نسبية فكرها نقدي وأرضها كثيرة الزلازل، لا تستقر منظوماتها ولا تثبت أطروحاتها ورعاتها جشعون إذا أكلوا لا يشبعون وفي أرزاق الفقراء هم طامعون. ولهذا سيكون على الإنسانية أن تتجاوز خطاب النخبة المُحَلّى بديباج التسامح، وأن ترى ثياب العنف المرقّعة وتُطِلَّ من وراء ستائر النعوت السائدة والمتحصنة بمقولة صراع الأديان بحقيقة الصراع الاقتصادي والاجتماعي وجراح العاطلين واليائسين، حتى تستطيع رسم صورة موضوعية للعنف في زمن ليس الدين فيه سوى طلاء لآلام المجاهدين وآمالهم في تحقيق غد أفضل. ولكن ذلك لا يعني إيجاد شرعية للعنف الإسلامي والوقوع في وهم الصراع بين الحضارات فمن آثاره المدمرة أنه يقضي بعزل المسلمين وإقناعهم بأن الحل هو في الهروب نحو الماضي، فيكون نجاح مشروع الصّدام في إقناع المسلمين به والزجّ بهم في حرب تستنزف أرواح أبنائهم وتعطّل المشاريع العقلانية لإصلاح أوضاعهم وتزيد مجتمعاتهم أزمات من خلال التراجع عن كل الخطوات التنويرية التي قطعت نحو تحديث المجتمعات ونشر فكر التسامح والانفتاح الواعي على الثقافات الأخرى؛ فالإرهاب ينجح يوم تنطلي حيلته على الضعفاء ويأخذهم الطّعم نحو شَرَكِ حروب كثيرا ما تكون ضدّ أعداء وهميّين فيلقى الأبرياء حتفهم، وتظل المنظومة الغربية في موقع الانتصار الذي بشّر به "فرانسيس فوكوياما" تنظر من موقع الأسياد إلى سائر الشعوب، وهي تتخبط في مشاكلها وتصارع من أجل وجودها على أرضية بدائية.

لقد وجد الغرب آليات لإضعاف الإرهاب الإسلامي وغلق الحدود في وجه المجاهدين؛ فهو على عادة رعاة البقر بارع في ترويض العنف وتوجيهه، ولهذا فلا غرابة أن يرتدّ العنف على أصحابه وأن تحترق به أراضيه، فهو خطر على المسلمين أكثر مما يمثل خطرا على الغرب، لأنه يبشر بمشروع توصد فيه أبواب الحداثة على أصحابها ويُحرم المسلمين من تبادل خيراتها. فالبناء الإنساني ما عاد يقبل جُزُرا معزولة يعيش فيها الإنسانُ وحيدا كَحَيِّ بن يقظان، وإنّما هي فعل إنساني مشترك يفرض على الغالب تنازلات أكبر، لينال القاطنون في الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية شيئا من تقدم الجزء الشمالي، وتتقارب الحدود الطبقية الصارمة بتنازلات بورجوازية أساسها بناء مشروع حداثة تستعيد أخلاقها وتستنفر مشاعرها الإنسانية، وقد غرقت في بحار العقلانية وتاهت في شعاب المصالح. حينئذ ستكون المرجعية "المكّية"[8] للمسلمين في التأويل أقرب، وستغمد سيوف المجاهدين وسيُقبل المسلم على الحياة، مثل إخوانه في سائر العالم، وقد وثق أن الحداثة ما عادت تِنّينا جائعا يلتهم جميع المختلفين، وإنما صارت جنة تستوعب جميع المؤمنين. فقد كتب على الإنسانية

[8]- نسبة إلى الفترة المكّية التي عرفت بعدم نزوع الخطاب القرآني والممارسة النبوية إلى العنف.

أن تتّصل مصالحها وتتشابك علاقاتها وما عادت الثقافة حكرا على جماعة دون أخرى، بل صارت قنوات التواصل أكثر قدرة على كسر كل الحدود وتحطيم الحواجز الوهمية بين بني البشر، وقد أتى على الإنسان حين من الدهر يستعيد فيه قيمه وأخلاقه من أجل إعادة التوازن بين بني البشر. فأسمى ما تسعى إليه الإنسانية هو الخير، وهو بحسب التعريف السينوي ما يتشوقه كلّ شيء ويتم به وجوده والخير الأسمى وبالمنطق الديكارتي هو الشيء الذي نضعه هدفا لكل أعمالنا، والانبساط الروحي المتولّد عنه، والذي نسعى إليه هو غايتنا.[9] ولا يمكن لهذا الخير أن يتحقق إلا حين تصير الأنسنة مصيرا مشتركا تتألم فيه الإنسانية لجراحها بدل الانجذاب إلى غرائز عنفها وإملاءات جشعها.

[9]- انظر، جلال الدين سعيد، **معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية**، ط1، تونس، دار الجنوب، 1994، ص ص 187-188

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com